

لزوم الاستقامة وترك الركون إلى الظلمة

سؤال: يأمر الله تبارك وتعالى في سورة هود بالاستقامة، ثم ينهى عن الركون ولو قيداً أمثلة إلى الظلمة، فما الإشارات التي يمكن أن نستلهمها من هذه الآيات المباركة؟

الجواب: يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
(سُورَةُ هُودٍ: ١١٢/١١).

هذا أمر للمسلمين بالاستقامة موجه إلى شخص رسول الله ﷺ، فلنعدّه موجهاً إلينا أيضاً، وكأنّ الله تعالى يقول: "فاستقيموا أيها المؤمنون كما أمرتم".

سُرُتُوجِيهِ الْأَمْرِ لِلْمُفْرَدِ الْمُخَاطَبِ ثُمَّ النَّهْيِ لِلْجَمْعِ

في هذه الآية تبجيلٌ وتكريمٌ للنبي ﷺ، وكأنّ الله تعالى يُشيدُ بِخُلُقِهِ العظيم ويخاطبه بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١٢/١١)؛ وهذا - والله المثل الأعلى - كما يعجب الأب بحسن أخلاق ولده الصغير واستقامته ويقول له: "ثابِرْ على هذا الدرب ما حييت"؛ ومن الخطأ جزماً أن نفهم من الأمر التعريض بأنّ سيد السادات صلوات ربي وسلامه عليه قد انحرف عن الجادة - حاشا وكلاً - فجاءت هذه الآية تأمره بالاستقامة؛ فالآية

لا تدلُّ على هذا المعنى لا منطوقاً ولا مفهوماً؛ فالاستقامة دأبه الدائم ﷺ في أقواله وأفعاله ومشاعره وخواطره؛ فمعنى الآية: "على هذا النهج الحسن دُمَّ دائماً"، وإلى هذا يشير النهي الوارد بصيغة الجمع بعد الأمر بصيغة المفرد: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، والمتأمل لهذه الآية وأمثالها يجد أنّ القرآن الكريم إذا دعا إلى البرّ خاطب النبي ﷺ مباشرة بصيغة المفرد كقوله ﴿فَأَسْتَقِمْ﴾، وأما النهي فيورده بصيغة الجمع كقوله: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا﴾؛ ويُستنبط من هذا أن المقصود بالخطاب هو الأمة المحمدية، أما سرّ توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ فذاك لأنّ لنا فيه أسوة حسنة.

وللنهي عن الطغيان بعد الأمر بالاستقامة مباشرة مغزى عميق، وهو أنّ كلَّ مَنْ ينحرف عن الاستقامة ينزلق رويداً رويداً في الضلال والطغيان؛ فلزم تحذير أهل دار الابتلاء من الطغيان إبان دعوتهم إلى لزوم الاستقامة.

حذار حذار من الظلم بأنواعه كافة

أشار السؤال إلى الآية التالية:

﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (سورة هود: ١١/١١٣).

وهذا نهْيٌ عن الركون ولو قليلاً إلى الذين ظلموا، وتحذير من القعود معهم؛ لأنّ مَنْ يركن إلى الظلم ويميل ولو قدر أنملة إلى الظالمين قد يتردّى شيئاً فشيئاً دون وعي في مثل هذا الغيِّ، أي سينحرف بشكلٍ ما عن خطّ الاستقامة.

وأفاض القرآن الكريم في حديثه عن الظلم، فذكر ما يكون من الكفرة والمنافقين من ظلم وطغيان، وما يقترفه بعض المسلمين من آثام، يقول

تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾
(سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٨٢/٦).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رضي الله عنه قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَنَزَلَتْ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ١٣/٣١)^(٢٢)؛ سَرَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْبَرْتَهُمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الظُّلْمِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ هُوَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ.

فمن الظلم انتهاك حرمت الله، والاستخفاف بأوامره، وصد الناس عن أداء التكاليف الشرعية، والتسبب في الفتنة والفساد، ومثل ذلك تجاهل الحق والحقيقة، والتضييق على المسلمين واستهدافهم حسداً وغيظاً، والحديث عن الحق والعدل دون السعي إلى إحقاقهما، والاعتداء على حقوق الخلق، واختلاس أموال الناس، واستغلال الرؤساء -أيًا كانت مناصبهم- للمرؤوسين في مصالحهم الشخصية، ناهيك عن عدوهم هذا الأمر حقاً لهم عليهم.

ففي الآية أمر بتجنب أنواع الظلم كافة، بل نهي عن الميل إلى الذين ظلموا.

ولا يفوتنا أن نذكر نكتة لطيفة في هذا المقام:

الظلم لا يعني الجور والطغيان فحسب، بل من الظلم أيضاً محاباة أي مسؤول في أي موقع لأقاربه وأنصاره ومن كان على نهجه، وأكل أموال الناس ولو شروى نقير.

ودلت الآية الكريمة أن الميل إلى الظالم -أيًا كان مستوى الميل-

يوجب النار؛ فدخل في عموم النهي ﴿وَلَا تَطْعَمُوا﴾ مجالسة الظالمين وتجاهل ظلمهم وغبطنهم وتمني المرء أن لو كان مكانهم؛ كيف والحق تعالى يقول:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (سورة الأنعام: ٦/٦٨).

فهذا أمر بالانصراف عن مجالس الظالمين ممن تلوك ألسنتهم بذيء الكلام ازدراءً لقيم جديدة بالتبجيل والتقدير.

أجل، بينما الحق ﷺ يرشد المسلمين إلى الاستقامة وبنهاهم عن الطغيان، حذّره من الميل إلى الحيف والظلم.

إنّ من اتخذ الاستقامة أساساً لنيته وحياته وكلامه وتصرفاته وأفعاله سيثور على الظلم والبغي؛ وفي كتاب الله آية تتحدث عن ثواب من يتجنبون الظلم بأنواعه كلّها وهم على خطّ الاستقامة ماضون، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة فصلت: ٣٠/٤١).

سؤال: لماذا يميل المرء إلى الظالمين؟

الجواب: لعلّ للركون إلى الظلم والذين ظلموا أسباباً عدّة؛ فقد يتغاضى المرء عن الظلم ويصفق للظالمين، والتاريخ شاهد على أناس تعساء صفقوا للظلم واستحسنوا عمل الظالمين خوفاً على مقاماتهم ومناصبهم؛ وسيأتي قوم يكيلون الشاء للظالمين كيلاً حرصاً على مناصبهم

وما فيها من رفاه؛ أجل، إنّ حبّ المنصب جرثومة فتّاقة تُخضع المرء للظلمة.

ومن أسباب ميل الإنسان إلى الظالمين حبّ التمجيد والمديح، والشغف بالفاهية، والولع برغد العيش، والتعلّق المفرط بالأهل والبنين؛ نعم، لن ينفكّ عن الترحاب بالظالمين أبداً من همّه ذووه وبنوه وأحفاده وذريته، ومنتهى همته قصرٌ في أعالي الجبال أو شواطئ البحار، والتمتع بهذا المكان شتاءً وبذاك صيفاً، وقد يحسب مثل هذا أنه على طريق الحقّ ماضٍ وهو يسير على مزلاج سرعان ما ينزلق منه ويخسر حيث تُرجى النجاة.

وما أكثر الأسباب والجرائم في هذا الصدد! وكلٌّ منها نافذة مفتوحة على الظلم، فمن واربّ باباً منها ألقى نفسه في مستنقع الظلم؛ فليبعد المرء بينه وبين الظلم وسبله أميلاً؛ ف"سدُّ الذرائع" المعروف لدى الأصوليين واجب ههنا، فليُغلق الإنسان بل فليُوصد منافذ الضعف التي تسوقه إلى الظلم كالخوف وحبّ المنصب والشغف بالتهليل والمدح؛ إذا علينا أن نتجنّب بدايةً الجرائم الفتّاقة الباعثة على الميل للظلم والظالمين كما نتصدّى للأمراض فتتقي الجرائم المعدية بالتّماس، وهذا هو الطريق الأسلم، وكل سبيل سواه قد يفضي بالإنسان إلى الحيف والظلم من حيث لا يدري، وهذا يعرضه لمزيد من الحرمان؛ ففي فاصلة الآية الكريمة أنّ من يميلون إلى الظلم ما لهم من دون الله من أولياء ثم لا يُنصرون؛ وذلك لانقطاع صلّتهم بربهم ﷻ.

وأريد أن أذكر في النهاية مسألة أخرى: يقول الله تعالى عقب هذه الآية الكريمة التي تنهى عن الركون إلى الذين ظلموا:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٤).

وللأمر في هذه الآية مغزى عميق: إن التناسب بين هذه الآيات يُظهر أنه طالما استطاع الإنسان أن يتخلى عن الإسلام الصُّوري وأن يقيم الصلاة بأركانها الظاهرة والباطنة، فقد أَمِنَ من الركون إلى الذين ظلموا ومن استحسان أفعالهم.

إِنَّ الْوَرْدَ مَنبُتُهُ التُّرَابُ

سؤال: يَسْتَعْمَلُ اللهُ تَعَالَى أحياناً بَعْضَ النَّاسِ فِي أَعْمَالٍ وَمَناصِبٍ مَتنوعَةٍ،
ثم إذا بهم يَحْسَبُونَ أَنفُسَهُمْ أَفْضَلَ وَأَعْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ، فَمَا الْأُمُورُ اللَّازِمَةُ
فِي مَوْقِفِ كَهَذَا؟

الجواب: على من خلقه الله من ماء مهين أن يجيش قلبه بمشاعر
الشكر والمنة والتواضع والمحو والفناء عندما تهطل عليه نعم الله تعالى
عَدَقًا، وعليه أن يرى نفسه أدنى من الآخرين أيًا كانت مكانته، وأن يقولَ
كما قال "إمام ألوار":

كُلُّ عَبْدٍ هُوَ قَمْحٌ وَحَسَنٌ

وَوَحْدِي أَنَا التِّينُ وَوَحْدِي الْقَيْسِيُّ

وإن شئتم فأطلقوا على هذه الرؤية تواضعًا أو محوًا أو نكرانًا للذات،
فالحقيقة أن الوجود كفسيلةٍ تتمدد وتنمو في ثنايا هذه الرؤية.

كان من الممكن أن يسقط نيزكٌ

ما أجمل قول الشاعر:

والبذرُ في التُّرْبِ إن لم يُدْفَنَا أُنَى يَكُونُ لَفَيْضِ رَبِّكَ مَظْهَرَا

والمراءُ إن كان لِرَبِّكَ مُخْتَبَا فِرْحَمَةُ الرَّحْمَنِ فَضْلًا قَدْ سَمَا

أي إن البذرة إن لم تُدفن في التراب، وتستسلم للعفن والفناء فلن تُنبِت السنابل؛ فهي لن تُنبِت إلا إن انسحقت تحت التراب، فصارت ترابًا وفنيت عن ذاتها.

أجل، لا بدّ أن تفتنى البذرة لتنبعث من العدم وتصبح خلقًا جديدًا؛ وهكذا فليعدّ كلُّ امرئٍ نفسه أيًا كان موقعه في الحياة الاجتماعية؛ ومن لم يفكر إلا في هذا السبيل فلن يخسر بمشيئة الله حتى في أشدّ الابتلاءات؛ لأنه وطّن نفسه على هضم النفس، لا يطرب بالانتصارات ولا يستسلم للتضييق والهجوم والإهانات؛ نعم، إن من يرى نفسه كالبذرة تحت التراب لا يأبه بمن يسير فوقه، لكن من يرى لنفسه منزلة بأي وجهٍ قد يضيق ذرعًا حتى من أجل أنفه الأمور، ويستوحي أمورًا يقرؤها في نظرات الناس وإيحاءاتهم وتجهّم وجوههم بل في ابتساماتهم أيضًا، ويعدها استخفافًا به وتفريطًا في تقديره تقديرًا يليق به.

أجل، إن من يضع نفسه في منزلة ما، إن لم يلق من الآخرين ما يتوقعه من المعاملة فقد يستنبط تأويلات سلبية من أي شيء، أمّا من تحصن بحصن المحو وتخلّق بالتواضع ووضع نفسه تحت الأقدام فلن يؤذيه ما يوجّه إليه من إهانات وتضييق وضغط؛ فهو لا يضيق ذرعًا بذلك بل إنه ليرى نفسه من أهل هذه السلبيات، ويستغل هذا الموقف لمحاسبة جديدة لنفسه، فمثلاً لو سقطت جوزة على رأسه لقال: "كان من الممكن أن يسقط نيزكٌ بسبب وضعي الحالي"، ويؤمن بأن وراء كل حادثة كثيرًا من الحكّم والمصالح؛ لأن الله تعالى له في كل شأن حكمةٌ، ولا يفعل شيئًا عبثًا.

هذا وقد أصبح للتواضع والمحو والحياء أهمية عظيمة في الدعوة إلى الله خاصة في هذا العصر الذي طغت فيه الأنانية.

تأملوا الوردة تجدها تنبت في التراب، ولا تنبت في الزمرد أو المرجان أو الياقوت أو الذهب أو الفضة، رغم القيمة الثمينة لهذه الجواهر التي تُخلق بمشيئة الله في باطن الأرض وقاع البحار، بل إن ورد الورد صلوات ربي وسلامه عليه قد نبت في التراب؛ أجل، إن أمه الطاهرة وأباه وأجداده أيضاً من تراب، فلنكن كالتراب إذا ما شئنا أن نكون منبثاً للورد.

التخلص من الأنانية

إن اتباع نهج السنة المطهرة في علاقتنا بالناس له بالغ الأهمية لئلا نرى أنفسنا متميزين عن غيرنا، ولتغدو خصلة المحو والتواضع والشعور بها خصلة رئيسة في طبيعتنا الإنسانية؛ فمثلاً يقول مفخرة الإنسانية محمد ﷺ:

"أَحَبُّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا (وفي رواية: مُؤْمِنًا)" (٢٣).

إذا من رقت مشاعره واتسع فكره ووجدانه حتى أحب للآخرين ما يحب لنفسه فإنه مسلم ومؤمن حقاً؛ ونقيضه لو أن إنساناً لم يحب لغيره ما أحبه لنفسه، ويريد لغيره ما لا يريده لنفسه فقد خرج عن البيئة الوقائية للإيمان الحقيقي، ومشى على أرض زلجة قد ينزلق عنها ويتدحرج في أي آن.

هذا وعلينا في الوقت نفسه أن نحمل أفعال الآخرين بل وحتى تصرفاتهم التي لا نستسيغها على محمل حسن، ونقول في أنفسنا: "لعل ثمة مصلحة لا أعرفها بنى عليها هذا الإنسان تصرفه، ولعل لديه فكرة انطلق منها ولم أستطع أن أدركها، ورُبَّ حكمة دعته للقيام بهذا التصرف الذي لا يروق لي؛" أي علينا أن نحسن الظن بتصرفات الناس ما استطعنا، تلك التصرفات التي تبدو خاطئة في الظاهر، إلا أنها تحتل تأويلاً

معقولاً، وقابلة للتفسير والتأويل؛ وهذه النظرة تجنّبنا سوء الظن بالناس وتحملنا على حسن الظن بهم؛ هذا فضلاً عن أنها تحفظنا من أن نتحكم أنانيتنا في كل شيء.

عندما يغدو التواضع فطرة

لن تغدو هذه الخصال أموراً فطرية إلا إذا أدركنا أننا بحاجة إلى إعادة تأهيل حساسة، فلنلجأ أولاً إلى اسم الله "الرب" لنقضي حياتنا في كنفه ورعايته، وليكن لدينا عزم وإقدام على أن نصبح ممّن يشملهم سبحانه وتعالى بتربيته ورعايته، بل علينا أن نحاسب أنفسنا كل يوم عدة مرات لنرى أين نحن من مبادئ الدين.

وهذه المسألة تقتضي المداومة والثبات، يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

"أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى آدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ"^(٢٤).

ومعلوم أنّ تتابع قطرات الماء يؤثر حتى في الصخر ويثقبه؛ أجل، ليست قوة الماء هي التي تؤثر في الصخر بل ديمومة القطرات، فالمواظبة على إعادة التأهيل والتربية وحضور مجالس ذكر الله ﷻ من أهم ما ينبغي أن نراعيه في هذه المسألة.

ومن قبلُ كانت التكايا والمدارس تشمل كل الحياة، فقامتا بهذه المهمة معاً في تساند وتعاضد في فترة ما، وكان روادهما الذين أسلموا أنفسهم إليهما يبلغون مستوى الإنسانية الحقّة بالمجاهدة وتربية النفس وتطوير قابلياتهم العقلية والقلبية والروحية.

(٢٤) صحيح البخاري، الرقاق، ١٨؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٨.

أجل، إن هذه الأماكن المباركة كانت تهدي روادها إلى سبل السير في آفاق القلب والروح والسرّ، بله فتح العقول لتعلّم المسائل العلمية؛ نعم، لو دُرست هذه المسائل في دائرة العقل فحسب لقبعت في قوالب ضيقة من مفاهيم العقليين والمعتزلة، وقد يتعذر القول بأن من ساروا اليوم على هذا الخط -رغم سعة الإمكانيات- قد جرّوا أي نفع للناس، أما من يناجون قلوب الناس حقاً فأولئك هم الذين يواصلون معراجهم في أفق القلب والروح.

obeikandi.com

بكاء القلوب الحزينة

سؤال: يُقال: قد يتغمّد الله تعالى العالم كله برحمته ببكاء قلبٍ حزين؛ فلمَ لا تشعر قلوبنا بما ينبغي أن تشعر به من همٍّ وحزن؟

الجواب: الإنسان هو مصدر كل مشكلة يمر بها الفرد أو الأسرة أو المجتمع من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا؛ وهو أيضًا عنصر أساس في الأزمات والفتن والظلم والفوضى اليوم، ولما كان الإنسان مصدر كل مشكلة فلا يمكن حل المشكلات إلا بإعادة صياغة الإنسان من جديد بأسلوبٍ مبدّاهُ الوحي والوجدان، فإن لم نفعل ذلك تعذر منع البغي والضلال والسفه والبؤس على وجه البسيطة.

أن يدرك الإنسان أنه في قاع البئر

يُعدُّ إهمال الإنسان أعظم مشكلات البشرية اليوم، لكن من منّا يا ترى يشعر بهذه المشكلة في أعماقه ويغتم لها ويتكدر؟ إننا بكلّ أسفٍ لا نستطيع أن ندرك حجم هذا السفه والبؤس ومقدارهما، وذاك السقوط والانحراف الذي يخرب كل البسيطة؛ لأن معظمنا يعيش الجو نفسه والبيئة عينها.

وإليكم مثلاً يبين المراد: أقمتُ مدة في المدينة ثم زرتُ أحوالي في القرية، وما إن دلّفتُ إلى الباب حتى شممت رائحة الروث المحروق، فقلتُ: ما أخبثها من رائحة! فأخذ أحفادُ خالي يضحكون؛ لأنني أقمتُ في طفولتي ما يقرب من شهر في هذا البيت، ولم أشعر فيه إذ ذاك بأيِّ ضيق أو إزعاج.

وجاء في كتاب المشوي لمولانا جلال الدين الرومي أن رجلاً عملَ عند دَبَّاعٍ، فألفَ رائحةَ الجلود المستقدرة واعتادها، فلما زار سوقَ العطارين وتنسّمَ الروائح الزكية سقط مغشياً عليه.

يصف مولانا جلال الدين الرومي بهذه الحادثة حال الطبائع الفاسدة؛ أجل، أصبحنا نرى مناظر تُخجّل الإنسانَ من إنسانيته ولا نشعر بأيِّ خجل أو ألم، ويكأننا نرى كل السلبيات من الأمور العادية؛ وما ذلك إلا لأننا نشأنا في هذه البيئة وألفناها وانسجمنا معها، كما قال الشاعر:

إذا ما شبعْتُ حسبْتُ الناسَ شَبَعِي

وذو عَوَزٍ يخالُ الكونَ قَفْرًا

فإذا لم نشعر بالآلام ونحس بها فإن قلوبنا لن تنكرها ولن تبحث عن سبل الخلاص منها؛ لأن الإنسان يصطبغ بطروفه وبيئته، فتتأثر حواسه جميعاً بتلك الصبغة، بل تؤثر على دماغه أيضاً؛ فيكون إحساسه بكل شيء وتقويمه له مرهوناً بحالته هذه، وليس بمقدوره الخروج عنها قيد شعرة، فيتعذر عليه أن يُدرك أن هناك مقاماً ربانياً قد تخلّف عنه وكان عليه أن يتبلّغهُ، ويظنّ أنه يجُولُ في مناخٍ مفعم بالفرح والسرور والحالُ أنه في قاع البئر؛ لذا لا يحاول أن يخرج منها.

أجل، إنَّ الإنسان بمقتضى فطرته يتألف مع بيئته بعد مدة معينة؛ فلو أن إنساناً عاش في مكانٍ صاحب فلا ريب أن أذنه ستألف هذه الأصوات بعد مدة؛ ثم يتعذر عليها أن تشعر بذبذبات كان ينبغي أن تسمعها؛ وعلى هذه الشاكلة نحن، فمنذ أن تفتحت عيوننا على الدنيا كنا نرى أناساً يلهثون وراء لذائذهم ومتعهم ولا يكثرثون لشيء وهم سعداء بذلك؛ ولذا لم نستطع ألبتة أن ندرك حالنا البائس المؤسف.

إنَّ الهَمَّ مصدرٌ مهم للإلهام؛ فهو يوحى للإنسان بكثير من الطرق والسبل المتنوعة للخلاص من الحال الخانق الذي يعيشه، فمثلاً لو سقط إنسان في بئرٍ، وأدرك أنه في القاع، فاغتمَّ وتكدر لذلك، وبحث عن مخرج من هذه البئر، فسيجد بفضل الله وعنايته مخرجاً، وسيخرج؛ حتى وإن لم تكن في يده مجرفة أو معول فسيأخذ من يديه مخلباً ليحاول الخروج، ويظل يكابد ويقاسي حتى يشقَّ تجويفين في ناحيتي البئر يضع عليهما قدميه، فإذا استقلَّ على قدميه شقَّ تجويفين آخرين؛ وبمثل هذا السعي والتخطيط سينجح ويخرج من قاع البئر؛ لكن مَنْ لا يُدرك أنه في القاع، ويرضى عن حاله، فلا شك أنه لن يسعى إلى الخلاص مما هو فيه ألبتة.

حالة الاستضعاف تستنزل الرحمات

ولو أنَّ الإنسان استشعر الهَمَّ والقلق تُجَاه التردّي والانحراف الذي يعيشه وتوجَّه كليةً إلى رَبِّهِ ﷻ لتجلى له - كما قال الأستاذ النورسي رحمه الله في كتابه "اللمعات" - سرُّ الأحذية من خلال نور التوحيد الخالص إذا ما انقطعت الأسباب بالكلية.

ومعلوم أن سيدنا يونس بن متى عليه السلام لما ابتعله الحوت اجتمعت عليه ظلمةُ بطن الحوت وظلمةُ أعماق البحار وظلمةُ الليل الحالِك، فتوالت

عليه الظلمات وأحاطت به من كلِّ مكان، فتضرع هذا النبي الكريم إلى ربه ﷻ قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)، فاستمطر بذلك الرحمة الإلهية، ونجا من بطن الحوت؛ رغم أنه كان يكابد ظلماتٍ ثلاثاً بعضها فوق بعض؛ يقول إبراهيم حقي (٢٥) ﷺ في هذا المقام:

تَرَى كُلَّ حِجَابٍ يَنْكَشِفُ بَغْتَةً إِذَا تَقَطَّعَتْ بِكَ السَّبِيلُ
ولِكُلِّ آلامنا لدى المولى دواء أفعاله فلنرتقب فما أجمل كل ما فَعَلْ
والآن انظروا إلى حالنا البائس اليوم، وقولوا لي بربكم: ألسنا في حالة أشدَّ من تلك التي كان عليها سيدنا يونس بن متى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عندما كان في بطن الحوت؟

يصف الأستاذ النورسي هذه الحالة فيقول: "إن نفسنا هي حوتنا"، أي إن أنفسنا هي التي تبتلعنا اليوم، فها نحن نلهث وراء الدنيا وأصبحنا أسرى لهوى النفس، والأنكى من ذلك أننا لا نعي أننا قد تردينا إلى تلك الحالة؛ لذا نبدو كأننا بلا حسٍّ ولا قلب ولا ضمير تُجاه ما يقع في مختلف أرجاء العالم اليوم من ظلم وجور وبغي؛ فلا بدّ إذاً أن نسأل أنفسنا: "أين كنا، وأين أصبحنا؟"، ثم نحاول أن نعقد صلة بين عصرنا وعصر السعادة، فنقارن بين هذين العهدين؛ بل ينبغي أن تمتد أنظارنا إلى عصر الأيوبيين والزنكيين والسلاجقة والعثمانيين، تلك العصور التي اقتبست نورها من عصر السعادة، لتتعرف على أصحاب هذه العصور الأقوياء ذوي الإرادة والعزيمة أمثال: صلاح الدين الأيوبي، ونور الدين زنكي، وآلب أرسلان، والملك شاه، وقليج أرسلان، والسلطان محمد الفاتح، ثم نفكر كيف ردّ

(٢٥) إبراهيم حقي (٢-١١٩٤هـ/١٧٨٠م): عالم تركي جليل وزاهد متصوف، عاش في القرن الثاني عشر الهجري، له عدة مؤلفات أشهرها "مَعْرِفَتُنَا".

وقاوم هؤلاء عدوانَ هذا العالم الوحشي عديم الرحمة، وما الوصفات التي وضعوها لمشكلات كادت عقولهم تنفجر من كثرة التفكير فيها؟

أجل، علينا أن نقارن بين عصرنا وهذه العصور الزاهرة لتأمل حجم حالتنا البائسة وشناعتها؛ وأظنُّ أن تفكيرًا كهذا سيقودنا إلى طرق باب رحمة الله ﷻ حتى نستشعر الألم ونجد الدواء، ويدلنا ﷻ على سبيل النجاة والخروج من حالة الشؤم هذه؛ أما من رأى هذه الحالة الشنيعة أمرًا مألوفًا فلا سبيل له للوصول إلى سبيلٍ بديلة أو طرق جديدة للخلاص.

بذور الهموم التي تنتثر في القلوب

لا يمكن للإنسان أن يكون محملاً بالهموم والمكابدة إلا بعد أن يتعرف العصورَ الذهبية التي كان يُطبَّق فيها الإسلام على أحسن وجه، ويُدرك ما مُنيَ به المسلمون اليومَ من دُلٍّ ومسكنة.

وفي مثل هذا المشهد يُعرب الأستاذ النورسي عن همِّه وقلقه بما معناه: "ليس عندي وقت أضيعه في التفكير فيما يعرض لي من تعب ومشاق؛ ليته حلُّ بي ألف ضعف من هذا العناء ويسلم مستقبل قلعة الإيمان"؛ وذكر ﷺ أنه راضٍ بالتقلُّب ولو في نار جهنم إذا ما كان إيمان الأمة في أمن وسلام؛ وهذه المبادئ هي من مقتضى كونك إنساناً حقاً؛ فلو أنك إنسانٌ حقاً ورأيت البشرية تسلك طريقاً إلى جهنم، فلا بد أن تصيبك الرعدة والرعدة أمام هذا المشهد؛ والحقيقة أنه قد لا يستشعر كل الناس هذه المسائل بهذا القدر من سمو الضمير.

وقد لا يكون من المناسب أن يتعرف الجميع على كل مشكلة وكل قضية؛ لأن منهم من لا يتحمل فيروس نزلة برد خفيفة ويموت به، أما ذوو الجهاز المناعي القوي فإنهم إذا ما هاجمتهم الجراثيم نفسها لم يهتزوا لها

إِلَّا لِمَاءًا، وليس لكل من يسعى في الخدمة الإيمانية والقرآنية جهاز مناعةٍ على نفس المستوى؛ لذا فلو أنكم حدثموهم عن الآلام والمشكلات كلها فلربما حطّم ذلك قواهم المعنوية؛ أجل، قد يقع هؤلاء في اليأس والقنوط إذا حدثموهم عن شيء من المشكلات الخطيرة.

دعوني أبوح لكم بمشاعري: لو أن آبائي وأجدادي أحياء وماتوا فجأة معًا، فوالله إن ألمي من أجلهم لا يبلغ ما أشعر به في نصف يوم من همّ وألم من أجل مستقبل الإسلام؛ حتى إنني أخرج أحيانًا من غرفتي ليلاً وقد قصم ظهري القلق والهم، فأغدو وأروح في الممرات كالمجنون، ورغم هذا أتحاشى في أحاديثي ذكر ذوي المقاصد الخبيثة ممن يكيدون ويسعون بالدسائس والمؤامرات وغدوا كالبعبع يخوف الناس بهم في كل مكان؛ لأن مثل هذا الأمر قد يوقع الناس في اليأس ويضعف عزميتهم؛ لذا أحاول أن أخفي عن الناس ما بي من غمٍ وكدرٍ، وهمومٍ وأحزانٍ.

ولو أنني أعلم أنهم قادرون على تحمّل الآلام والمشكلات لأوقدتُ الجمرات ونثرتُ بذور الهموم في قلوب كل من تبلغهم كلماتي ليتألّموا بآلام البشرية، فيجافي النوم عيونهم ويأخذوا في التجوال هنا وهناك كالمجانين حتى يجدوا الدواء الناجع؛ وقد قيل: "لا يكمل إيمان أحدكم حتى يقال إنه لمجنون"؛ أي إنه لا بدّ عندما ينظر الآخرون إلى حالكم أن يقولوا: لماذا يُشغَل هؤلاء بهذه الأعمال وكان بوسعهم أن ينعموا بكل ما في هذه الدنيا الفاتنة من بساتين وحدائق وزهور موقنة وجو ماتع بديع؛ إن مثل هذا الجنون لهو - كما يقول يونس أمره^(٢٦) - تعبيرٌ عن بذل العبد كلّ ما يملكه في سبيل الله.

(٢٦) يونس أمره (١-؟ - ٧٢٠هـ/١٣٢٠م): شاعر تركي شعبي وزاهد وصوفي، ترك أثرًا كبيرًا في الأدب التركي منذ وقته إلى عصرنا هذا.

وهل يصح أن نقول: إن من لم يكن هكذا فقد خاب وخسر؟ معاذ الله، فقد أخبرنا صاحب الشريعة ﷺ أن "مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ"^(٢٧)؛ فليس أحد منا نائبا عاما، وليس لأحد أن يصادر على دخول أحد الجنة، فهذه مسألة أخرى، أما ما نحن بصدده فهو مسألة احتضان البشرية بأسلوب نبوي، والاعتماد والتكدر من أجل ما تعانيه الإنسانية من مشكلات والتفكير في إيجاد الحلول لها.

obeikandi.com

الاعتدال والاعتدال

سؤال: عصرنا هذا فيه انحرافات فكرية خطيرة في كل ساحات الحياة تقريباً، وتقع فيها ألوان من المغالاة، فما الذي ينبغي مراعاته حتى لا يقع منا إفراط أو تفريط في هذا الصدد؟

الجواب: إن الاعتدال والحفاظ على الاعتدال أمر مهم للغاية لتتمكن من أن نجعل الدين حياةً لحياتنا، ونطبقه كما يريد الله؛ ذلك أن الانزلاق إلى الإفراط أو التفريط إنما يكون حين يُفقد الاعتدال، وعندئذ تتكون دائرة فاسدة؛ إذ إن الإفراط يولد التفريط، والتفريط يولد الإفراط؛ والواقع أن السبيل إلى السلامة من الإفراط والتفريط هو اتباع سنة مفرخة الإنسانية ﷺ الهادي إلى الصراط المستقيم، فهو من كان يوصي أمته دائماً بالاعتدال.

الصراط المستقيم

يُعرّف الصراط المستقيم في منظومة الفكر الإسلامي بأنه اعتدال كل من "القوة الشهوية"، و"القوة الغضبية"، و"القوة العقلية"، فاعتدال هذه القوى جميعاً يعبر عنه بـ"الصراط المستقيم"؛ وثمة أمور أخرى كثيرة مثل المنافسة والتنافس والنية والنظر وغيرها يمكن وزنها بهذا الميزان، أو فلنقل: إن لكل ما جُبل عليه الإنسان من طباع -حسنة كانت أم سيئة- صراطاً مستقيماً.

مثال ذلك "النظر"، ومعناه قراءة الأشياء والحوادث وتقييمها، فالناظر المتفائل يمثل الإفراط، والمتشائم يمثل التفريط، أما الناظر إلى حقيقة الأمور فهو وسط بينهما؛ ومعلوم أن المتفائل هو من يتغاضى عن الشرور والشناعات ويتناول كل شيء من منظور حسن جميل فحسب، أما المتشائم فهو من يرى كل شيء سيئاً حالك السواد، وأما الناظر إلى الحقيقة أو الناظر بالهدى فإنه يسعى ويجهد كي يرى كل شيء على حقيقته؛ والواقع أن "مَنْ حَسُنَتْ رُؤْيُهُ حَسُنَتْ رُؤْيُهُ وَجُمِلَ فِكْرُهُ؛ وَمَنْ جُمِلَ فِكْرُهُ تَمَتَّعَ بِالْحَيَاةِ وَعَاشَ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ" كما ذكر الأستاذ بديع الزمان في "نوى الحقائق".

هذا ويلزم -حتى في الأشياء المستقبحة- العناية بالأفكار الطيبة، والتقييمات الجميلة طالما أمكن التأويل، لكن هذا لا يعني تجاهل الواقع، والعيش في عالم الخيال والأحلام؛ إذ ما ينبغي فعله هو رؤية كل شيء كما هو دون هروب من الحقائق ولا تجاهل لها، ودون الوقوع في تشاؤم أو يأس، وهذا هو الاتزان في "النظر".

والواقع أن النفس المستقرّة في ماهية الإنسان، التي تبدو كأنها شرٌّ في الظاهر تصبح خيراً له إن استقام على الصراط المستقيم؛ بل إن الشيطان الذي يُضِلُّ الناس ويفتنهم بوسوسته وتزيينه، إن وَعَيْنَا الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِهِ فربما يكون ذلك دافعاً للمرء لأن يتوجه إلى الحق تعالى دائماً ويلجأ إليه؛ أمّا إذا ما نُظِرَ إِلَيْهِ -والعياذ بالله- كأنه قوة مستقلة، فمعنى ذلك أنه قد نُسِبَ إِلَيْهِ قُوَّةٌ وَسُلْطَةٌ وَهَمِيَّةٌ كَتَلِكِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا قَوْمٌ فِي النُّورِ وَالظُّلْمَةِ -وهذا هو الضلال-؛ فهم يدعون أن كلاً منهما مصدر قوة قائم بذاته، وأن النور لا ضرر منه، وأنه يتعين إسعاد من يمثلون الظلام؛ فهم من أجل إثبات هذا الفهم المعوجّ يحملون أوزاراً لا يبلغها عقل ولا خيال؛ وقد عمّد

عبدة الشيطان أبناء الفلسفة نفسها إلى استرضاء الشيطان ليتقوا شره كما يزعمون؛ نعم، من الإفراط أن ننسب لمخلوق عاجز - لا سلاح له ولا سلطان علينا إلا الوسوسة والتزيين - قوى وقدرات لا تكون إلا للخالق، ومن التفريط أن نتغافل عن همزه ولمزه، ونستهين بوسوسته وتزيينه، بل إن في هذا تجاهلاً لهدي الكتاب والسنة وإعراضاً عنهما؛ وذلك أن الشيطان عدوٌ مبين للإنسان، فإن ظل الإنسان غافلاً ولم يُعطِ إرادته حقها فقد يخسر سعاده الأبدية على يد ذلك المخلوق الغدار المكّار.

ضحايا النجاح

كما أن التوازن مهمٌ للغاية في توقي ما هو شرٌّ مُهلك هو مهمٌ كذلك في توخي الحذر إزاء ما يُساق إليك من خير، أي كما ينبغي التوازن في استغلال المشاعر الجانحة إلى الشر وتوجيهها نحو طريق الخير، ينبغي أيضاً لزوم الصراط المستقيم وتجنب الإفراط والتفريط في أعمال البدن والروح في الإيمان والعبادة والأخلاق؛ فمثلاً لا بدّ للمرء أن يتحرى الدقة والكمال في كلّ ما يقوم به من عبادات وأعمال من صلاة وزكاة وصوم ودعاء وكذا التفكر والذكر والتدبر؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه الحكيم: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة: ١٠٥/٩)، فهذا أمرٌ بأداء الأعمال على الوجه الأكمل أداءً من يعلم أن أعماله معروضة بين يدي الله ورسوله والمؤمنين أرباب البصيرة.

والخلاصة أن على المرء وهو يؤدي أي عبادة أن يكون شغله الشاغل "يا ترى! هل أدتها كما ينبغي؟"، وأن يسعى دائماً إلى الكمال، وينبغي أن لا ينسب النتيجة إلى نفسه أبداً ولو أدى عبادته على أكمل وجه، وألا يغترّ ويسيء الأدب بين يدي ربّه بأن ينسب الفوز والنجاح إلى نفسه؛ لأن الله تعالى هو خالق النتيجة.

وهكذا فإن كان من التفريط التقصيرُ في أداء العبادات والتكاليف، وأداؤها في غفلة وفتور بلا عناية أو اهتمام؛ فمن الإفراط اغترارُ المرء بما بذله من جهد فيما قام به، وتجاهله لتوفيق الله له بنسبته النتيجة إلى نفسه، فهو بذلك يسيء الأدب بين يدي الله تعالى؛ فيرجف إيمانه ويؤدي بنفسه في أودية الشرك والنفاق؛ فهو وإن بذل بادي الأمر جهداً عظيماً وتحرى الدقة والكمال في عمله، إلا أنه استغلَّ في النهاية ما حققه من نجاح في الشهرة والسمعة.

وحقيقٌ بمن نجح وتفوق في عمل عمله في سبيل الله أن يتسم بالتواضع والمحو والحياء، وأن يردد كما يقول محمد لطفي أفندي:

هُوَ أَمْرٌ فَوْقَ حَدِّي وَأَنَا عَبْدٌ ضَعِيفٌ لَسْتُ أَهْلًا لِلْكَرَمِ!

فَلِمَادَا كُلُّ هَذَا اللَّطْفِ وَالْإِحْسَانِ؟

أجل، على الإنسان أن يؤدي ما يقوم به على أكمل وجه، وأن يحقر نفسه وبذلها كما يضرب الدبَّاعُ الجلد بالأرض يهدِّبه ويحسنه؛ وعليه ألا ينسى أبداً أن ما أحرزه من فوز ونجاح قد يكون ابتلاءً واستدرجاً، وأن يخشى دائماً الضلالَ والهلاك.

انظروا، لقد ظهر من يدعي النبوة أمثال الأسود العنسيِّ ومسيلمة الكذاب في عصر أضاء فيه النور الحقيقي كلَّ مكان، وأفلت دونه الشمسُ والأقمار، فهؤلاء البؤساء كانوا ضحايا لقدرات ومهارات اكتشفوها في أنفسهم، فانسحقوا وهلكوا تحت براثن الكبر والأنانية.

دعاوى المهديَّة في عصر الأنانية

لا جرم أن هذا الضرب من الزيغ والضلال لا يختص بعصر دون آخر، فقد وقع على شاكلتها كثيرٌ في كلِّ عصر ومصر؛ وفي عصرنا أناس

مفوهون إلى حدٍّ ما، تراهم يدبّجون شيئاً في سطر أو سطرين، وربما قطعوا مسافةً يسيرةً في المجاهدة، ثم إذا بهم يضيّعون التوازن ويحاولون أن يجعلوا من أنفسهم قبلةً وبوصلةً، ويقومون ويقعدون بـ"الأنا" و"حبّ الذات"؛ ولما رأوا السُدُج من الناس يتحلّقون حولهم رغم ضالّة ما قاموا به ظنوا أنفسهم أقماراً تهدي السالكين، وكأنّ هذا هو السبب في كثرة من يدعون المهديّة في زماننا، أعرف منهم خمسة أو ستة في تركيا، ومنهم ثلاثة أرادوا أن يلتقوا بي.

جاءني منذ فترة يسيرة شابٌّ في الثانية والعشرين من العمر، وقال: "أستاذي، كنتُ أحسب نفسي حُسينياً فقط، ثم ثبتت بالدراسة والتحصيص الدقيق أنني حَسَنِيٌّ أيضاً؛ فتحدثتُ إليه عن المحو والتواضع، وأنّ التكبرُ وحبّ الظهور أمانة الصّغار، أما العظام فأمارتهم الانحناء تواضعاً كما العصا.

وبعدما ذكرتُ له ما ذكرتُ انصرفَ وأنا أحسب أنه قد اقتنع، لكنه لما خرج قال: "حسناً يا أستاذي، لكن ماذا عسى المرء أن يفعل إن كان مكلفاً لا خيار له في هذا الأمر؟".

ليس هناك مقام سوى النبوة يجب على صاحبه إعلانُه والإبلاغ عنه، حتى وإن كان هذا الشخص أبا حنيفة أو الشافعيّ فليس من وظائفه إبلاغ الناس عن كونه أبا حنيفة أو الشافعيّ، والمهديّة كذلك؛ لكن يتعدّر إقناع من حبسوا عقولهم في تصوّر كهذا؛ نسأل الله أن يهدي كل مغرور أنانيّ إلى الصراط المستقيم.

وأذكّرُ أخيراً إلى احتمال وجود مثل هؤلاء المدّعين ضمن دائرة صالحه مركزها المحو والتواضع والإخلاص ونكران الذات، وإقناعهم

أصعب لأنهم يشفقون أنانيتهم الذاتية من أنانية الجماعة، فيقول أحدهم: "كنتُ إلى الآن تلميذًا، وكان لفلان ألف من الملائكة والأرواح، ثم إن تسعمائة منهم فارقوه وأتوني".

وهناك أمثلة كثيرة مختلفة في كل عصر على مثل هؤلاء الذين قد يتعرضون للإغواء والخداع، ويصبحون أسرى للشيطان.

فلا يغيبنَّ عن خلدِ أحدكم أن انتشار الأشواك حتى في وقت نبات البذور وازديان البساتين بالورود أمر محتمل، فالحذر واليقظة والبصيرة وإن كنت تسير في بستانٍ كهذا.

أجل، ظهور الضالين المضلين وارد في كل وقت، فيتبعهم السدج من الناس؛ وكما تنمو الأشواك مع الورود فقد يصخب العققوع عندما تغرد البلابل، وربما تعجب العققعة أناسًا لم يسمعوا شدة البلبل الرائع ولم تألفه آذانهم.

إنَّ سدَّ الباب لئلا ينخدع أحد بادعاءات هؤلاء يقتضي أن نتحرك بحذر ويقظة دائمة، وأن ننظر إلى الحوادث ونرصدها ألف ألف مرة بفِراسةٍ كتلك التي عند سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

المبالغة في المدح وأضرارها

سؤال: قد يقوم إنسانٌ بعملٍ خَيْرٍ يستحقُّ عليه التبجيل والتقدير، فننوّجُه إليه بكل الاحترام والتقدير لعل ذلك يحضُّه ويشجعه على المزيد، لكن ذلك قد يدفعه إلى الغرور والفخر؛ فما الأمور التي لا بدَّ من مراعاتها في هذا الصدد؟

الجواب: قد يتخلل الثناء والتقدير والتبجيل على النجاح شيءٌ من المغالاة وتفريطٌ في التوازن والاعتدال؛ ومن السنن الإلهية: أنّ مَنْ يُطْرَ شخصًا يعاقب بخلاف مقصده وغايته؛ حتى إنك إن بالغت في مدح شخصٍ حُبُّه واجبٌ عليك وحقٌّ له، فقد تُعْرِضُ نفسك لما ينزله بك القدرُ الإلهي من عقاب؛ فهذا سلوكٌ يبغضه الله، فكن متوازنًا في الحديث عن حبِّك وإعجابك بمن تحب وتعجب لئلا تقع في المغالاة بمدحه؛ فمن أطرى امرأً فأفرط وادعى أنه يطير في الهواء ويمشي على الماء، ويطوي الزمان والمكان، فقد يقول الله له: "ليس عبدي هذا كما زعمت، فقد رفعته فوق قدره"، فيعاقبك سبحانه وتعالى بما يخالف مقصودك.

وهكذا جعلت المدوح هدفًا للحساد

من سلبيات الإطراء أنك حين ترفع امرأً إلى عنان السماء تثير حفيظة الآخرين عليه، فيدفعهم هذا إلى محاولة الحطِّ من قدره؛ فأنت من أنشأ جبهاتٍ معادية لمن كنت تُغدق عليه المدح والثناء، فحذار من الإفراط

في الحديث عمّن تحب، واعلم أن إطرارك له أمام الآخرين يثير فيهم الحسد والغيرة.

مثلاً قد يحب امرؤُ عالماً جليلاً لأنه عرّفه حقيقة الإسلام والإيمان، ويتأثر كثيراً عند ذكره، وي جيش قلبه جيشاً نأ بمشاعر المنة والشكر له، وينطلق لسانه قائلاً: "ما أكثر الحقائق التي تعلّمناها منك، واتّسعّت بها آفاقنا! فبك عرفنا مفخرة الإنسانية محمداً ﷺ حقّ المعرفة!"؛ ولكن لا ينبغي ألبتة أن تسوقه هذه المشاعر إلى المغالاة في مدحه كوصفه بالنبيّ والرسول، أو الدخول في مغالطاتٍ كرفعه إلى مقامات ومراتب لم تخطر قطّ ببال هذا الرجل العظيم ولم ترد على خاطره مطلقاً؛ ثم إنّ نعت هذا الشخص المبارك بهذه الصفات والدرجات السامية بين يدي أتباع رجل عظيم آخر قد يثير لديهم مشاعر الغيرة والحسد، فيصدر عنهم ردّ فعل سلبي تجاهكم وتجاه من تحبّون وتوقّرون.

على المرء أن يكون يقظاً حذراً حتّى عند حديثه عن مفخرة الإنسانية محمداً ﷺ -بأبي هو وأمي-؛ نعم، هو سفينة نجاتنا وسبيل سعادتنا في الدارين، وهو من أزال الغشاوة عن وجه الوجود، وكشّف الأسرار المكنونة في روح الأشياء، وجعل من هذا العالم الغارق في الفوضى والاضطراب جسراً إلى جنّات النعيم، وها نحن في جوّ إيماني ساحر نتنّسّم بفضلته هو عبّق السكينة والطمأنينة على حسب عمق إيماننا، لكن كله لا يسوّغ أن نسند إليه -معاذ الله- صفةً من صفات الألوهية ألبتة.

الحمد لله وحده

أمّا مسألة تبجيل الذات الإلهية وتعظيمها فقل فيها ما تشاء؛ لأنه لما استحال أن يكون لله تعالى شريك أي لا ضدّ له ولا ندّ، لم يكن لأحد أن يقول: "لمّ تمدح سيدك فحسب"؛ فسيدك هو هو سيده، وهو هو

سيد السادات، وهو هو سيّد سيّد البشر ﷺ، يقول ﷺ: "السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى" (٢٨)، فهو سيّد العالمين، فامدحوه وعظّموه ما بدا لكم؛ بل كونوا أمام شمس الشمس كيراعة خبًا نُورها بطلوع الشمس، وإلا استحالت معرفته حقّ المعرفة؛ لأن رؤيته ومعرفته بعظمته وجلاله رهن بأن يدرك الانسان أنه عدّم، وما أحسن قول من قال:

أنى تتجلى لعبدي يقول ها أنا ذا

فلن أراك ظاهرًا حتى أكون غائبًا

لا يمكن أن يُعرَض شيئا معًا على ستارة واحدة، فلا بدّ أن تغدو عدّمًا حتى يتأتّى إدراكك للموجود الحق وشهوّه ومعرفته.

على الإنسان أن يقرّ بأن وجوده ما هو إلا ظلّ حتى يرى الأصل؛ وثمة كثير من عباد الله كالأنبياء العظام والأصفياء الفخام والأولياء الكرام اجتهدوا وسعوا ليتحقق فيهم هذا المعنى، أما نحن فوّاءهم، بل شتان شتان... ومن يدري فلعلّ من يُظْلَم اللهُ في ظلّه يوم القيامة هم من كانوا في الدنيا كالظلال، فيقول الله لهم: "كنتم كالظلّ في الدنيا، فتعالوا أظلكم في ظلّي يوم لا ظلّ إلا ظلّي".

أجل، لنا أن نقول مثل هذا في الله ﷻ، أما من سواه تعالى فلنلزم الدقة والحذر في تقديرنا وتبجيلنا لهم، فالحقّ أنه ما من حمدٍ أو ثناءٍ على المخلوق إلا وهو حقٌّ له ﷻ؛ فممن صدر ما تدبّجه الكلمات من ثناء ولمن وكيف ومتى وأيًا كانت الظروف فهو حقّ خالصٌ لله تعالى.

أليس في قراءتنا للآية الكريمة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نحو أربعين مرّة في اليوم تعبير عن هذا المعنى؟ ولما كانت اللام في كلمة "الحمد"

للاستغراق دَلٌّ أَنْ كُلَّ حَمِيدٍ مِنْ أَيِّ حَامِدٍ لِأَيِّ مَحْمُودٍ هُوَ حَمْدٌ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَكُلَّ حَمِيدٍ وَثَنَاءٍ عَلَيَّ مِنْ نَحْبٍ إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَاقِعِ لِلَّهِ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَنَا نَحْنُ وَمَنْ نَحْبُ.

ظُلُومٌ أَشْبَهَ الْمَظْلُومَ

والخلاصة أن علينا أن نكون على وعي وحذر بالغ في حديثنا حتى عن شخصيات عظيمة أهلٍ للتبجيل والتعظيم، وأن نتجنب الحديث عن معتقدنا وآرائنا فيهم أمام أناسٍ قد يصدر عنهم ردّ فعل لا تُحمد عقباه؛ لأن في استشارة مشاعر الحسد والغيرة في نفوس الآخرين تكثيراً لعدد جهات العداء لنا، وزجاً للأبرياء في الذنب؛ فالحسد يدفع الحاسد إلى الذنب ويحبط أعماله؛ قال بعض الحكماء: "ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد"؛ أي إن الحاسد ظالم، إلا أنه بحالته هذه قد تردى إلى حالة تستدعي الشفقة عليه؛ فلا ينبغي أن نلجئ أحداً إلى مثل هذا الحال.

ويبعد أن يراعي الجميع مثل هذه الدقة في مسألة دقيقة كهذه، لكن لا بد أن تكون سمّاً لمن لهم مكانة خاصة بين الناس.

أعداء العش السعيد

سؤال: رُوِيَ في الصحيح أَنَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى الشَّيْطَانِ التَّفَرُّقَةَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَهَدْمَ عَشِّ الزَّوْجِيَّةِ، فَمَا نَصِيحَتُكُمْ لِلزَّوْجِ لِكَيْلَا يَقْعُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْفَخِّ، وَلَيْتَا تَوَوَّلَ الْحَيَاةَ الزَّوْجِيَّةَ إِلَى الطَّلَاقِ أَبْغَضِ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ؟

الجواب: إن الشيطان هو الداعي إلى كلِّ شرٍّ، المدمِّر لكلِّ ما هو جميل، قال الله تعالى:

﴿فَزَيْنَ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ١٦/٦٣).

وقال: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٧/٢٠).

دلَّتْ هَاتَانِ الْآيَاتَانِ وَأَمْثَالُهُمَا عَلَى أَنَّ سَيِّئَ الْأَعْمَالِ مِنْ شَأْنِ الشَّيْطَانِ.

العدو الخفي اللدود

وفي آيةٍ أُخْرَى يَنْعَتُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الشَّيْطَانَ بِوَصْفِ "الْعَرُورِ"، فَيَقُولُ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْعَرُورُ﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ٣١/٣٣).

لفظة "العُرور" صيغة مبالغة؛ أي "كثير العُرر"؛ وهذا يدلُّ أَنَّ للشَّيْطَانَ حِيلاً فَظِيعةً تَحَارُ دُونَهَا الْعُقُولُ وَالْأَلْبَابُ، فَهُوَ يَدَسُّ سُمُومَهُ وَدَسَائِسَهُ وَحِيلَهُ فِي عَقْلِ ابْنِ آدَمَ وَصَدْرِهِ، وَأَفْكَارِهِ وَأَمَانِيهِ، وَيَجْتَهِدُ فِي تَضْلِيلِهِ وَالتَّغْيِيرِ بِهِ.

وفي آيةٍ أُخرى وُصف الشيطان بـ"الْحَنَاسُ"؛ لأنه عدو خفي يكرّ ويفرّ؛ أي يتراجع ويتقهقر، فإن وجد الفرصة مواتية انقضّ على الإنسان، فيأتيه باسم الخير ويتدثر بالحقّ، ويزيّن له كلّ ما هو سيئ وقبيح، ويسعى إلى إضلاله في كلّ حين، ونجد الإنسان أحياناً يقع تحت إِسَارِ الشيطان وينساق بوسوسته، ورغم هذا يعد نفسه مخطط كل شيء وصانعه، فيقول: "أنا مَنْ فكر وقرر وقدر وفعل"، وكأنه فعل كل هذا وحده، فمن أخطر الدسائس الشيطانية ما يجعل الإنسانَ ينكر وجود الشيطان كما يقول الأستاذ بديع الزمان.

وتقوم النفس المتجذرة في ماهية الإنسان بوظيفة مركز الاتصالات للشيطان، ففي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (سُورَةُ يُوسُفَ: ١٢/٥٣)، فإن النفس الأمارّة تلازم الإنسان وتأمّره بالشر على الدوام، ولمزيد البيان إليكم هذا التمثيل: كأن الشيطان يرسل إشارات وشفرات متتالية إلى الإنسان كشفرة مورس، فتحلّ النفس هذه الشفرات وتُملئها على الإنسان، فيتلقى الإنسان هذه الإشارات الواردة من الشيطان أو النفس الأمارّة ويتحرك وفقاً لها، أي ينساق لها ويرتكب كثيراً من الآثام، ومن أعظمها هدمُ عَشِّ الزوجية وتشردُّ الأطفال ووقوعهم في حالة يرثى لها مادياً ومعنوياً.

حجّة الإفساد

لاحظنا في السؤال أن الشيطان لا يفرح بشيء فرحه بالطلاق وهدم عش الزوجية، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّ إبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَكْبَرَهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ

كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيَدِينُهُ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ" (٢٩).

"إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ"، في هذا إشارة إلى أماكن تكثر الشياطين فيها ويكثر إغواؤهم وإضلالهم لأهلها، أي أكثر الأماكن التي لا يبرحها الشيطان هي الشواطئ، وهي مَطَانُ شتى أنواع الشرور والمفاسد. "ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَائِيَاهُ"، فبعض هؤلاء الأعوان يحمل الإنسان على أكل الربا، ومنهم من يزين للعين لتنظر إلى الحرام، فيثير شهواته البهيمية، ويجعله يجري وراء غرائزه، ومنهم من يزين لللسان الكذب فيكذب، أو الغيبة والافتراء فيفعل، وربما يقوم كل منهم بإغواء الناس وإضلالهم في مجال استعداده ومهارته الخاصة.

"فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ أَكْبَرُهَا فِتْنَةٌ، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا"، هو يسر في الواقع بكل تلك الذنوب والآثام؛ لأن المعاصي بريد الكفر، إذ ينكت الذنب في القلب نكتة سوداء، ويباعد بين العبد وربّه خطوة، بيد أن ما ينتظره الشيطان من أعوانه أكثر وأكثر.

"ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيَدِينُهُ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ"، وفي هذا إشارة إلى مصيبة كبرى وحادثة اجتماعية فظيعة انتشرت اليوم.

ومعنى هذا أن هدم عش الزوجية له أهمية عظمى عند الشيطان حتى إنه لا يعبأ معه بأعوانه الذين ساقوا الناس إلى الشرور والآثام، ويخص من فرّق بين المرء وزوجه بالثناء، ومن يدري لعله يكافئه على ما فعل!

ولكن لِمَ يحظى هذا الأمر بكلِّ تلك الأهمية عند الشيطان؟

ذلك لأنَّ الضرر لا يمس الزوجين فقط، بل يمتد إلى أطفالهما وأصولهما وأقاربهما وأحبابهما، بل يمكن القول بأن الضرر يمس المجتمع بأسره بمعنى ما؛ فإن الأسر عندما تتفكك -وهي جُزَيئاتُ المجتمع- تتوالى التصدعات والتشققات في المجتمع، ويغدو عرضة لتشوهات خطيرة، ثم إن فرقة الزوجين ستغدو نموذجًا سيئًا، فتسري عدوى هذه الجرثومة في أوصال البيوت الأخرى، ويظهر من هذا كله أن ما يقوم به الشيطان قد يبدو صغيرًا في الظاهر، والحق أنه يهدم الكثير بهذا العمل.

علينا ألا ننسى أن الشيطان سيفعل كلَّ ما بوسعه للإيقاع بين الزوجين، ولن يضيع لحظة ليحوِّل عشاءً سعيدًا مؤهلاً لأن يكون روضة من رياض الجنة إلى حفرة من حُفر جهنم، وسيحاول في سبيل ذلك هو ومن تحكم بهم ووجههم كما شاء من أبالسة الإنس للإضرار بمؤسسة الأسرة.

ولا جرم أن أكثر المتضررين في هذا العش الذي يقع فريسة للتعارض والتساقط هم الأطفال؛ لأن الأسرة التي يخيم عليها النزاع والجدال والشقاق والنفاق ليست بيئة ملائمة لتنشئة أطفال ذوي قوام روحي سليم.

أجل، إنَّ فحش القول بين الوالدين في بيت ملؤه النزاع والشقاق سَيَقَرُّ في عقل الطفل ويقصم ظهره ويخيب أمله في والديه، وينزع عنهما لباس الهيبة والتقدير، وشيئًا فشيئًا يخسر الوالدان احترام الطفل وتقديره لهما جذريًا، وهذا مشهد أدعى لفرح الشيطان عدونا اللدود!

آخر الدواء: الطلاق

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "أَبْعَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ"^(٣٠).

يشير هذا الحديث إلى أن فرقة الزوجين ممقوتة مطلقاً عند الله تبارك وتعالى، لذا يتعين أن يتزود الزوجان في البداية بالمعلومات اللازمة حول النكاح حذرًا من هذا المآل العسير.

ولو أن لي من الأمر شيئاً لما أذنت بالزواج لأحدٍ دون أن يُلمَّ ببعض الكتب ويشارك في بعض الدورات حول هذه المسألة، ولألزمته بدورة تدريبية شهراً أو شهرين على الأقل ليتعلم أهمية الحياة الزوجية، ومهامها وحقوقها وواجباتها، وماهية العلاقة بين الزوجين، وتربية الأطفال؛ لأنه يتعذر بناء عش زوجي صحي دون معرفة الزوج بمسؤوليات الرجل، ودون معرفة الأنثى بمقام ربّة المنزل.

وينبغي أن تُبنى مسألة الزواج في البداية على أساس العقل والمنطق لكيلا يسلك الزوجان طريقاً يؤدي بهما إلى الطلاق والعياذ بالله؛ لأن الزواج أمر لا يقبل العاطفية أبداً، بل لا بدّ مع المشاعر من إعمال المنطق إلى أقصى حدّ.

أجل، من الصعوبة بمكان أن يستمر الزواج بأمان إن قام على الجمال فقط، فإنه ما إن تزول هذه الصفة حتى تتدمر الحياة الزوجية؛ فرغم أن المشاعر لها قدرها إلا أنه لا يجوز ألّبتة أن نُغفل دور العقل والمنطق والتعقل، وأن نمعن النظر قبل الزواج، بل لا ينبغي أن يكتفي الخاطبُ

بأفكاره، بل عليه أن يطلع على آراء من حوله من أصحاب الفكر والرأي. ولا ينبغي إغفال فترة الخُطبة، فهي ذات مكانة في عاداتنا، وهي فترة مهمة جداً لمعرفة مدى التوافق والتوافق بينهما، على أن يكون ذلك في حدود الشرع.

وبعد الزواج لا بدّ من التمسك بأحكام الدين الحنيف للحفاظ على منظومة الأسرة، ولا بد من العناية الكبيرة بحماية أسرارها وخصوصياتها، فإن ذلك يحول دون أعوان الشيطان وشياطين الإنس من ولوج هذا العُش وتدميره، هذا في الإعدادات المادية والمعنوية الواقية الحافظة، ثم إنه من الأهمية بمكان اللجوء دائماً إلى العناية الإلهية بحصن معنوي من الأدعية حتى يمكن لهذا العُش السعيد أن يستمر.

وقد يستحيل العيشُ بين الزوجين ويظهر الخلاف والشقاق بينهما رغم الحيلة والإعداد التام والحيلولة دون أي فراغ عقلي ومنطقي؛ فيستغل الشيطان وأعوانه من الجن والإنس هذا الوضع، ويسلكون مسالكهم للإيقاع بين الزوجين، فيقتنعان باستحالة استمرار الزواج في هذه الظروف، ويجدان الطلاق حلاً أخيراً لزوج لا طمأنينة فيه ولا أمل فيه للتعايش، وقد فصل القرآن الكريم المسألة في عشرات الآيات وهو يتحدث عن مآل الزوجين إذا آل بهما الأمر إلى هذه العاقبة الوخيمة، بل في القرآن سورة اسمها سورة الطلاق؛ وجاء مفخرة الإنسانية محمد ﷺ ليفسر ويبين في سنته السننية هذه الأحكام، ثم اجتهد الصحابة الكرام والفقهاء العظام من بعدهم، فكانت لهم استنباطات شتى في المسألة.

دلّ ذلك أن عنايةً بهذا القدر بمسألة الطلاق تفيد أنها مسألة خطيرة، ولكن ثمة ظروف تستوجب الطلاق بوصفه حلاً أخيراً إذا تعقد الأمر،

فإن سُدت كل الطرق أمام هذا الزواج بعد أن جرّبت شتى أنواع الحلول، ولا أمل في دوام هذا العش، جاز التفكير في الطلاق بمنأى عن دوافع العاطفة والنفس، وذلك في ضوء الحق والشرع، وبإشراف العقل والمنطق والضمير.

obeikandi.com

المحاسبة والاستغفار

سؤال: ما المعايير التي ينبغي أن يلتزم بها المؤمن عند التعرّض للبلايا والمصائب حتى يمكنه اجتيازها بشكل يتلاءم مع سلوكه الإيماني؟

الجواب: يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (سُورَةُ النَّسَاءِ: ٧٩/٤)، فكلّ مَنْ يصدّق بهذا البيان عليه أن يعزوّ أولاً كلّ مصيبة وبلية ألمّت به إلى أخطائه وذنوبه، فمثلاً لو سقط ما في يدك من طبقٍ أو كوبٍ على الأرض فاعلم أن هذا من نفسك، واحمله على انحرافٍ في تعقلك أو تصورك أو تخيلك في تلك اللحظة، ثم اسأل نفسك: "هل فعلت ما لا يليق بالحضرة الإلهية حتى أصبت بمثل هذا؟"، لأنه لا تقع أيّ حادثة في الكون عبثاً؛ فلو نظرنا في الحياة يامعان فسندرك أنّ أية مصيبة ولو صغيرة جدّاً تعد إنذاراً أو تحذيراً، وفي كل حادثة عبرة، فإن فهمها الإنسان وتوجّه إلى الله وعمل من الخير ما يكون كفارة لهذا البلاء، فقد يكون هذا وسيلة لدفع ما هو أعظم من الحوادث والبلايا بفضل الله وعنايته؛ أجل، إنّ كل مصيبة من هذا النوع بمنزلة تنبيه وكفارة في الوقت ذاته، فالكوب المكسور مثلاً قد يحطّم سلسلة من البلايا والمصائب، ويطهّر الإنسان من بعض ذنوبه، كما جاء في الحديث الشريف: "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَدَى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"^(٣١).

(٣١) صحيح البخاري، المرضى، ٤١؛ صحيح مسلم، البر والصلة، ٤٩.

البحث عن المجرم الحقيقي

والواقع أننا لا نستطيع أن ندرك دائماً بشكل جليّ صريح ما وراء الحوادث من أسباب، لكن على القلب المؤمن أن يفتش عن أخطائه وعيوبه أولاً حتى في الحوادث الغامضة التي نزلت به، فمن يتهم نفسه يكون قد خطا خطوة مهمة في البحث عن المجرم الحقيقي، أما إن برأ نفسه وراح يبحث عن المجرم في الخارج فلن يجده وإن قضى عمره كله في البحث عنه، وبذلك ينفق عمره في اتهام الآخرين.

وفي هذا يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "والآن عرفتُ السبب الحقيقي في قيامهم بظلمي وتعذيبي، أقول وكلي أسف: إن ذنبي هو اتخاذي خدماتي القرآنية وسيلة للترقي المعنوي والكمالات الروحية"^(٣٢).

إن ما ذكره هذا الإنسان الكامل ليكشف لنا عن مدى عمق محاسبته لنفسه، ومعنى كلامه أنه لا ينبغي أن نتخذ من خدمة الإيمان والقرآن سبيلاً إلى الألفاظ والعطايا الإلهية أو طريقاً لبلوغ مرتبة الولاية أو حتى للوصول إلى غايات سامية كالفوز بالجنة والنجاة من النار، فمن جعل هذه الأمور منتهى غاياته في خدمته الإيمانية والقرآنية أفسد الأمر؛ لذا لا بد أن تكون غايتنا الأم هي تحقيق الإخلاص ونيل الرضا الإلهي، ولا ينبغي أن تتغلب الرغبة في دخول الجنة والخوف من النار على تحقيق العبودية الحقيقية، ولا جرم أن الله تعالى سيجزينا بالشواب الجزيل على ما قمنا به من أعمالٍ مزدانة بالإخلاص، هذا وإنّ عبادتنا قاصرة محدودة أما نعم الله تعالى فهي كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصى، هب أنك ملك العالم ولديك تريليونات، فلا بد أن يعتريك الخوف عندما تنفق منها لأن الإنفاق ينقص

(٣٢) سعيد النورسي: السيرة الذاتية، ص ٤٧٥.

ما في يدك، أما نعم الله تعالى فهي كثيرة حتى لو حاول العادّ إحصاءها لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فما تسألونه ليس شيئاً مقارنة بما سيؤتيكم الله تعالى من فضله.

لا بدّ من تجنب أي نوع من الشكوى

إن من لا يستطيع إدراك الأسباب الحقيقية وراء البلايا والمصائب التي يتعرض لها تبدر منه كلمات تنم عن شكوى الله تعالى إلى الناس؛ إن للإنسان أن يشكو من ظلمه إلى المسؤولين والأوساط العامة إحقاقاً للحق، أي من لحق به الظلم له أن يشكو من ظلمه إلى الحقّ والخلق، ثم ينتظر حكم الحقّ تعالى وما يجريه على ألسنة الناس، لكن الإنسان ليس له ألبتة أن يشكو الله ﷻ إلى خلقه، وناهيك عن القول الصريح فإن التأفف والتضجر من المصائب والبلايا يُعدّ أيضاً شكوى، فليتجنّب العبد أي كلمة أو سلوك يوحى بالشكوى من الله ﷻ صراحةً أو ضمناً.

أما عدّ الإنسان هذا البلاء أو تلك المصيبة من نفسه فأمر مرهونٌ بمحاسبته لنفسه محاسبة شديدة، والمحاسبة رهنٌ بإيمانٍ بالله والآخرة راسخٍ في القلوب.

وفي الأثر عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا"^(٣٣).

وفي هذا دلالة على أنّ محاسبة النفس ذات علاقة وثيقة بالإيمان بالحساب في الآخرة.

ولو تأملنا أورد الأئمة العظام وأذكارهم لرأينا أنهم قد أنفقوا حياتهم في محاسبة شديدة للنفس: محاسبة نابعة من خشية الحساب في المحكمة

(٣٣) عبد الله بن المبارك: الزهد، ص ١٠٣؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ٩٦/٧.

الإلهية الكبرى، وربما لم نحاسب أنفسنا ونزجرها عن غيها طول عمرنا كما كان يحاسبها الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله في وردٍ واحد من أوراده. وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي أيضًا يزجر نفسه زجرًا عنيفًا، ثم لا يغلق باب الرجاء، فيتوجه إلى الله طالبًا العفو والمغفرة بما معناه: "كم عبدٍ لجا إليك وما عاد خالي الوفاض"، ومن ذلك قوله:

"يا ذا الجلال والإكرام، يا محيطًا بالليالي والأيام، أشكو إليك من غمِّ الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب، وإن ذلك لواقع ما له من دافع إن لم ترحمني، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولقد شكًا إليك يعقوب فخلصته من حزنه، ورددت عليه ما ذهب من بصره، وجمعت بينه وبين أولاده... ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه... ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت ما به من ضره... ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه... ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولدًا من صلبه بعد إياس أهله وكبر سنه... ولقد علمت ما نزل بإبراهيم خليلك فأنفذته من نار عدوه... وأنجيت لوطًا وأهله من العذاب النازل بقومه... فها أنا ذا عبدك، إن تعذبني بجميع ما علمت من عذابك فأنا حقيق به، وإن ترحمني كما رحمتهم مع عظيم إجرامي فأنت أولى بذلك وأحق من أكرم به، فليس كرمك مخصوصًا بمن أطاعك وأقبل عليك، بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك" ^(٣٤).

وأذكر هنا بورود مهمم جاء في "القلوب الضارعة" ^(٣٥)، ينبغي الأخذ به

(٣٤) القلوب الضارعة، ص ٣١١.

(٣٥) القلوب الضارعة: هو كتاب يجمع بين دفتيه مختارات من أدعية سيد المرسلين ﷺ وإخوانه من النبيين والصحابه الكرام وكبار الأولياء والصالحين. أشرف على جمعها الأستاذ محمد فتح الله كولن ومعظم هذه الأدعية التي جاءت بهذا الكتاب مقتبسة من كتاب "مجموعة الأحزاب" للشيخ ضياء الدين الكومشخانوي من علماء العهد الأخير للدولة العثمانية.

في هذا الباب، وهو "حزب الاستغفار الأسبوعي" للإمام الحسن البصري رضي الله عنه (٣٦)، فقد أفردت هذه الشخصية العظيمة استغفارًا خاصًا لكل يوم في الأسبوع، وقد بالغ في ذكر عيوبه وهول من أمر ذنوبه، والحسن البصري كما هو معروف علّم من أكابر التابعين، نهل من نبع الصحابة، وتصدى للفرق الباطلة المختلفة في البصرة حتى دحرها، ويمكن أن يقال عنه: إنه غلق أبوابه عن الذنوب والآثام حتى في رؤاه وأحلامه، وممن نهل من علم هذا البطل الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان عظيم الشأن؛ ومع تلك الخصائص كلها نراه يهول من أمر ذنوبه وعيوبه حتى إنك لتحسب أنه أعتى مجرم اقتترف ذنبًا في الدنيا، فتراه يتوجه إلى الله بلسان المفلس وحاله وكأنه من ذوي الإصرار على اقتراف الذنوب، وهكذا يمضي في محاسبة نفسه كل يوم.

المحاسبة تفضي إلى الاستغفار

محاسبة النفس على الأخطاء والعيوب تحمل على التوبة والاستغفار، ففي سورة الفرقان أورد الحق تعالى ضرورًا من الذنوب، وأوعد مرتكبيها بالعذاب في الآخرة، ثم إنه -رغم ما ارتكبوا من الموبقات- بشرهم بما سيحظون به في الآخرة إن هم أنابوا إلى ربهم وثابوا إليه مرة أخرى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة الفرقان: ٧٠/٢٥).

دلت هذه الآية أنّ مَنْ تشوّهت روحه بما ارتكب من الذنوب إن تاب واستغفر من فوره، وعقد العزم على التطهر الحقيقي، وجدّد إيمانه، ولازم العمل الصالح، بدّل الله تعالى سيئاته حسنات؛ أجل،

سيمحو الله ﷻ ذنوب هذا العبد أيًا كانت، سواء اقترفتها يده أو قدماه أم عيناه وأذناه، أو كانت امتعاضًا في وجهه أو إيماءً، فإنه سبحانه يمحوها جميعًا ويبدلها حسنات.

وأشار الأستاذ بديع الزمان إلى معنى تحتمله هذه الآية: يبدل الله قابليات الشر لدى الإنسان إلى قابليات للخير^(٣٧)؛ وهذا يعني أن التوجه إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة والأوبة يترتب عليه أن تتبدل ميول الشر في طبيعة الإنسان إلى ميول للخير والحسنات.

الاستغفار: ماء الحياة للبعث من جديد

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ تُسْرَهُ صَحِيْفَتُهُ، فَلْيَكْثِرْ فِيهَا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ"^(٣٨).

وقد بلغ سيد الأنام عليه أفضل التحيات وأكمل التسليمات ذرى هذا الأفق، يقول: "وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً (وفي رواية: مِائَةً مَرَّةً)"^(٣٩).

وتفسير هذا الأمر برقيه الدائم في أفق معرفته ممكن، وكذا تفسيره بأنه أسوة رائد لأمته، فكل راعٍ في جماعة أو لجنة تغدو سلوكياته وتصرفاته الطبية والقيحة قدوة لمن خلفه؛ فلو أن مدير المؤسسة أرسى مبادئ نفعية يتحرى بها منافع الشخصية، فسيجز الناس من ورائه إلى السرقة، وإن تحرى الخير والبر على الدوام كان عاملاً مؤثراً في توجيههم إلى الخير؛ وبهذه النظرة يمكننا أن نقول: إن رسول الله ﷺ كان يستغفر الله مائة مرة

(٣٧) سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٣٥٨.

(٣٨) الطبراني: المعجم الأوسط، ٢٥٦/١؛ البيهقي: شعب الإيمان، ١٥٢/٢.

(٣٩) صحيح البخاري، الدعوات، ٣؛ صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٤١.

في اليوم، فوجّه أتباعه بسنته هذه إلى العروج بأجنحة الاستغفار نحو آفاق تحلّق فيها الملائكة.

نعم إن المرء إذا ما أمعن النظر في نفسه ومسيرته وجد -أيًا كان مستواه- كثيرًا من الأخطاء والعيوب تستوجب الاستغفار؛ فقد تكون عينه زلت بنظرة أثناء سيره من مكان إلى آخر، أو ربما أُنثي على أحد أمامه فهمّ بالتهكم عليه والسخرية منه، وقد يكون سقط في مستنقع الغيبة وهو لا يعي... فالاستغفار الاستغفار، فإن أي ذنب من هذه الذنوب قد يُهلك صاحبه، فلنضع هذا نصب أعيننا.

وأشار الأستاذ النورسي إلى أن الذنوب وإن كانت صغيرة قد تُوبق الإنسان، فقال: "احذر! انتبه إلى موضع قدمك، وخف من الهلاك، فلا تهلك في أكلة، أو كلمة، أو طرفة، أو شارة، أو بقلعة، أو قبلة... فتَهلك معك لطائفك العظيمة"^(٤٠).

والناس في الدنيا يُخضعون كل شيء لحساب دقيق حتى أعمالهم الدنيوية، فيقومون بدراسات واسعة حول مشروع ما، ويستثمرون أموالهم في ضوئها، ثم يقومون الوارد والمصروف في آخر كل شهر، ويقررون هل هذا العمل مربح أم لا؛ فإذا كنّا نقوم بهذه الحساب والتقويم في أمور الدنيا الفانية أليس حريًا بنا أن نجعل لحياتنا الأبدية حسابًا أكبر وأعظم؟.

ومن المفيد هنا أن أنوه بأمر آخر في هذا الباب، يقول الأستاذ بديع الزمان رحمة واسعة: "إن الدعاء والتوكل يمدّان ميلان الخير بقوة عظيمة، كما أن الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشر ويحدّان من تجاوزه"^(٤١)؛ أي إن التوبة والاستغفار يحولان دون ميلان الإنسان

(٤٠) سعيد النورسي: اللغات، اللعة السابعة عشرة، المذكرة الرابعة عشرة، ص ١٨٧.

(٤١) سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٦.

إلى الشر، فهما مطرقة تشدخ رأس الذنوب والمعاصي وتقطع دابرها، والدعاء والتوكل يعززان ميول الإنسان إلى الخير؛ فَمَنْ استمسك بجناحي التوبة والاستغفار والدعاء والتوكل ارتقى مباشرة إلى أوج الكمالات الإنسانية، بل قد يجد نفسه خلف مفخرة الإنسانية محمد ﷺ؛ وأستدرك فأقول: ألا ليت الإنسان يقيم سدوداً تحول دون تخريب حياته القلبية والروحية ابتداءً، فهذا أفضل من أن يشتغل بالترميم، لأن ترميم الشيء الخرب وإعمارَه صعب جداً.

وأذكر أنني عندما ذهبت إلى مدينة "أدرنة" رأيتهم قد بدؤوا في ترميم مسجد "السليمية"، وقضيت هناك ست أو سبع سنوات ولم ينته الترميم، بينما تمّ بناء هذا المسجد في عهد السلطان سليم الثاني في ست سنوات؛ نعم، إن ترميم الشيء الخرب ليعود كما كان أصعب كثيراً من إعادة بنائه؛ فليس من السهل إذاً إعادة صياغة مَنْ تشوّهت رُوحه بذنوبه، فليحي المرء حياة تحول بينه وبين الدمار والخراب ابتداءً، ثم يمضي في حياته يقظاً حذرًا من الذنوب والآثام.